العطاء وانتهى بدور الشرق فى الأخذ ، فلم يكن الأمر بالنسبة له سمة جنس خاصة تفوّق بها على جنس آخر ، ولا امتياز بشرى عقلى أو نفسى على عنصر آخر ؛ ولكنه فى الجوهر والحقيقة نظام ودورات حضارية يرتقى الشرق قمتها ، ثم يرتقى الغرب الحديث قمتها . وبهذه النظرة الشمولية لأحوال الحضارة والبشر وضع العقاد الشرق والغَربَ فى مكانهم الملائم لدورهم التاريخى ، ووضع أوروبا فى منزلتها التى وصلت إليها ، لكنه فعل ذلك بغير إفراط أو تفريط ، وبغير تعصب قاصر بعيد عن حقائق الحضارات وتطورها .

نحن نعيش فى عصر النقل والأخذ عن الغرب ، فهل لنا فضل على أوروبا أو الغرب كما يحلو لنا أن نطلق عليها أحياناً على سبيل التعميم ؟ يجيب العقاد أن نعم . . ويعود بالفضل إلى أهله ، لا مباهاةً أو تعصباً قومياً ، ولكن ليصل إلى إثبات معنى الحضارة وملكيتها ، ومعنى أن يأخذ قوم من قوم فى مرحلة من مراحل الدَوَرَان والتطور . وبمنطق العقاد لا فضل مطلقاً ولكن تبادل للمنافع والفوائد ، فما فضل العرب على أوروبا قبل أن نبحث فضل أوروبا على العرب المعاصرين ؟ .

وبعد أن يثبت العقاد أن سلالة العرب الناشئين فى الجزيرة العربية قد سكنت أواسط العالَم المعمور منذ خمسة آلاف سنة